

خطرات

في السياسة والتاريخ

- ٢ -

الارستوقراطية

وفد كانت الارستوقراطية في انجلترا سياسية في جوهرها ، وإذا أضفنا إلى ذلك أسباباً أخرى ؛ لم تكن مجرد طائفة منعزلة عن الشعب ، حتى أن الطابع الخاص الذي لا بد منه للتمييز بين الطوائف الاجتماعية قد محى تماماً . ولقد أصبح هذا الاعتبار مسوغاً كما قال أحد الأعضاء الأقدمين في مجلس اللوردات لزميل جديد رقى حديثاً من مجلس العموم إلى اللوردية .

« اعلم أننا جميعاً هنا كالأصدقاء » — وقد يكون ذلك حقاً لا شك فيه من الوجهة الاجتماعية .

ويجدر بنا أن نذكر أن ما وصفه اولو الرأي السديد واسحاب البصيرة أن من أكبر الاصطلاحات الجليلة في الشؤون العامة التي اختطتها أية حكومة وهو اصلاح التحول في الترشيح والتعيين في الخدمة المدنية من الرعاية والمحسوبة لمقامات الملوك والاشراف ، الى المنافسة العلنية — قد تم في ظل مجلس وزارة مكون من خمسة عشر عضواً قال عنه المستر غلادستون أنه ليس من المستطاع ان تقوم هيئة اكثر ارستوقراطية في التشكيل منه ، اذ لم يكن من بينها عضو لا ينتمى الى الاشراف الا المستر غلادستون وحده . وقد اتخذ المترجم عن حياته (١) ذلك العمل الجليل مثلاً كيف ان هذا الرجل العظيم قد جمع بقدر لم يتأت لغيره ، بين السليقة الديمقراطية المتأصلة في نفسه البعيدة الغور ، وبين روح الحكم الصالح : اى سليقة المساواة الشعبية والروح العلمية للرجل الادارى المستير .

الملكية والجمهورية .

ولم تلب أية فكرة في كل مجامع الالفاظ المتعلقة بالحكومة نار النشاط والحاسة

(١) وهو اللورد مورلي نفسه مؤلف هذه الرسالة

في صدور البشر ، بقدر لفظة الجمهورية المعبود ، اللهم الا لفظة الملكية وفكرتها - وقد أوجدت فكرتا الجمهورية وحق الملكية من الانصار من دافعوا عنهما في كثير من المواطن بنفس الحماسة الملتية والاسلوب العقلي المحكم والبرهان العملي السديد . في حين أنك تجد أن أوجه الخلاف بين النظم المتعددة التي طبعت كلها بطابع الجمهور المشترك والتباين العميق في الجوهر والأثر والنظام العملي ، كثيرة جهد الكثرة فقد كان كرومويل حاكما بامر (دكتاتورا) اكثر منه رجلا جمهوريا . وكانت البندقية تختلف في نظامها اختلافا جوهريا عن فلورنسا والجمهورية التي نشأت بعد ان تخلفت مقاطعات سويسرا من النير النموسى ، كانت في شكلها واساسها مغايرة للنظام الهولندى بعد التغلب على اسبانيا (١) وهناك اختلاف بين بين هيكل الجمهورية الفرنسية الاولى والثانية وبين هذه والجمهورية الثالثة وبين الاثنين الآخرين وولايات أمريكا المتحدة . ولست بحاجة الى الكلام عن جمهوريات أمريكا الجنوبية حيث تسير الحضارة اللاتينية الكاثوليكية في سبيل متعرج غير مألوف ، وحيث لا تدل الجمهورية كنظام للحكم على اكثر ما فهمه من الملكية في بلاد البلقان المضطربة .

ولنتقل الى دعاة الحق المشروع وهو اسم اخترع للتعبير عن سلالة آل بوربون حينما زالت الجمهورية الاولى والامبراطورية الاولى من عالم الوجود بمعاهدة فينا سنة ١٨١٥ فاذا كان مدلول فهمنا عن الحكومة المشروعة هو انها حكومة حازت التملك والسلطة مستندة الى صفة معترف بها مكتسبة من الوراثة المنتظمة ، او المعاهدات ، او الفتح المعترف بمشروعيتها ، فإى الحكومات الملكية الآن تتوافر فيها صفات المشروعية اذا قيست بهذه المعايير !!! فوراثة العرش في انجلترا كما يعلم الكل تستند الى ثورة هي نتيجة احدى تلك الوسائل السياسية التي ترتفع لدرجة الضرورة ، ولو ان امراء البيان والمفكرين من يترك الى ما كولى قد اسبقوا عليها طلاء وافيا من قانون ونظام يعملان باستمرار غير منقطع . وفي إيطاليا وبلجيكا والسويد والنرويج نرى الملك مكللا بتاج صاغته ايدي الثور

الرأى العام

وحتى كلمة الرأى العام المقدسة — ملكة العالم كما اسموها — لذات معايير عديدة وقد

قال احد الكتاب في الشؤون الدستورية بمن لم تكبت قوة العلم فيهم روح الفكاهة (ولا تخلو السياسة ولا القانون من مواطن عديدة للتفكه) ان رأى البرلمان هو رأى الأمل ورأى القضاة هو رأى اليوم الذى قبله، أى ان القضاة يحكمون حسب سوابق الرأى والحكم وقوانين التفسير والشرح أما البرلمان فيشرع ويقضى بالضرائب وينظم الشؤون الخارجية تلبية لنداء الحركات التى تجرى خارجة . وكذلك مناقشة الفوائد التى تنجم عن أى نظام أو مضاره . فمن ذا الذى يضع حداً فارقاً بين قيمته القانونية والنظرية ، وبين تجربته عملياً ، أو يعمل حساباً لنفسية القائمين على تنفيذه وقيمة الاعتبار التقلدية المتعلقة به ؟ فالقائم على ذلك فى السياسة هو صوت جمهور المنتخبين . وهل هناك أسباب تدعوا الى اعتبار أغلبية الأصوات أو تعددها أقوى من صلاحية هذه القاعدة السياسية عملياً ؟ وهل دلت التجربة على صلاحيتها فعلاً حتى لجأ القوم الى استنباط وسائل أخرى - من استفتاء الشعوب ، لاستفتاء جمهور المنتخبين ، وغير ذلك من الوسائل التى تفرض على الشعب قسراً ، ويقصد بها تشتيت القوى المجتمعة لهيئة نيابة حاكمة ؟

وقد أكد كاتب (١) من خيرة كتاب العصر الحاضر أهمية العنصر الغير العقلى فى السياسة - كالوازع والغريزة ورد الفعل ، ويرى عن عقيدة ان فى السياسة التجريبي (٢) ينحصر غالباً فى تكوين الرأى باستقلال الاستنتاج غير الواعى (٣) والذى لا ينطبق على العقل استقلاً عن قصد وتعمل ، والحقيقة على الأقل هى أن المشتغلين بالتجارب السياسية يرون من الصعب التكهن بالعوامل الحاسمة

ولست الصحافة بالمعيار الذى نأمن له . اذ الواقع انه فى ثلاثة انتخابات برلمانية عامة منذ ١٨٧٤ كانت النتيجة مفاجأة كبرى لأولئك الذين اتبعوا الرأى الذى اختطته الصحف الاكثر انتشاراً فى اهم مناطق البلاد . فكانت هذه الصحف الكبرى فى واد واغلبية المنتخبين فى واد آخر . ولم يكن اللورد بيكو نسفيلد (٤) ليتوقع الهزيمة الكبرى التى لحقت سنة ١٨٨٠ ، وقد قال « كلارندون » عن « بالمرستون » انه اخطأ فى اعتبار تصفيق الشعب دليلاً على رأى البلاد الحقيقى ، وليس ثمة شئ من الصعوبة بحيث يستعصى على التقدير أو التحقيق . فالرجل الخيالى الذى ينشد الكمال ، يثور أو

١ المستر جراهام ولاس مؤلف كتاب « الطبيعة البشرية فى السياسة »

٢ أمسى لاينسل بقواعد ومقاييس

٣ subconscious

٤ دزرائيل اليهودى أصلاً

يبتس حينما يجد الجماعة تعيره اذنا صماء ، وفي باب التهكم الأدبي يشبهون عدم اكتراث الشعب بكل حديث من الآراء ، بالكلاب تنبح الاغراب ، او الخمار الذي بفضل حملا من التبن على عشر قطع ذهبية . وقد يكون من السهل ان نجد حجة ندافع بها عن هذين الحيوانين الامينين ، وعن الجمهور . ولو رجعت الى الحقيقة لوجدت أن التشبيه غير ذي جدوى . ولو أنه ليس هناك ادنى شك في أن الآراء والاحكام الناضجة المحصنة والعقول التي صقلها المران القويم ، تقابل دائما بالترحاب . وطبيعى أن مشاغل الحياة القاسية المجهدة ، هي اول العين العادية . بيد ان المزاج الناضج متى كان سديدا المقصد صبورا ، فانه لا محالة متسرب الى الاعماق ، كما أن العملة السليمة من الشوائب ، لا تقدم سوقا . وهناك أشكال عديدة متباينة من الحكومة النيابية تعد بالعشرات قائمة على مثلها من الحالات الاجتماعية والتاريخ . وليس من يدعي للرأى العام في أحدها أو كلها التقديس أو العصمة . في حين ان السخرية بالرأى العام ماهي الا النزاع مع الحياة البشرية ليس الا ، وكلنا يعرف نقائص الرأى العام ومساوئه في السياسة والخلق السياسى مثل الاقتناع المهلك بالأجوبة السهلة عن أسئلة صعبة معقدة والمصارعة كما يقول « هوبس » الى أن تغلب على العقل اذا كان العقل ضدنا ، والمغالاة الشنيعة في تقدير النافه من الاشياء ، والحللة الشنعاء على شيء اليوم ، ثم رجوع القهقري لا يقل شناعة في اليوم اللاحق . والمال يبذل جزافا لتأييد معبود الساعة هذا الاسبوع ، ثم اللعنات الشائعات تصب على الجواد الخاسر في الاسبوع التالى . ثم العجلة وجبن الخلق وعبث العمل دون جدوى . بيد انه لو توهم كائن من كان أن هذه النقائص والشروط لصيقة بالانظمة البرلمانية أو الديموقراطيات ، فقد فاته درس صحائف تاريخ الاستبداد الحزبى والسلطة الشخصية المطلقة والبيروقراطية المركزية وحاشيات الملوك البراقة وأبهة أبلطتهم

ذكرى ميلاد روسو

ويوافق اليوم (١) ذكرى ميلاد روسو منذ قرنين . وقد اقترح في مجلس النواب الفرنسى في الاسبوع الماضى فتح اعتماد من الخزانة العامة للاحتفال به ، فأدلى فريق بحجة أنه من السخف كل السخف تعظيم أب النظريات الهدامة ، بينما فى الوقت نفسه يطلق رجال الشرطة الرصاص ويقتلون عصابات الفوضويين فى ضواحي باريس .

وكان الفريق الآخر يؤكد رأيه وهو أن روسو كان السباق في بيان نظريات العدل الاجتماعي الحديثة، وأن أثره في الآداب الفرنسية والألمانية والروسية خالد لا يبل، بل يتجدد على مر الزمان. فهناك بعض الكتاب في عالم المؤلفات السياسية لا تتجاوز عدد الأصابع عدداً، يحل في التاريخ منزلة الكتب إذ هي بالفعل وثائق، كمؤلف جروتوس (أب القانون الدولي) المعنون «في حقوق الحرب والسلام» (١٦٢٥) و«ثروة الأمم» لآدم سميث (١٧٧٦) و«العقد الاجتماعي» أحدث هذه الكتب بلا جدال، كما كان كتاب «أنظمة المسيحية» الذي كتب في جنيف قبل عهد روسو بقرنين. إلا أن كالفن المبشر بالبروتستانتية في فرنسا، لم يكن نظرياً كما كان روسو، فقد كانت عزمته الأساس الذي شيد عليه كنيسه. ولقد كانت عزمته التي لا تقهر، وقوته التي لا تنزعزع، عمدته في مكافحة صعاب الساعة. ولو اقتصر الأمر على التعاليم وأوضاع العقيدة الكهنوتية، لما أصبح هذا الرجل إحدى القوى المسيرة لشئون البشر في تاريخ العالم. ويجب علينا أن نلاحظ هذه المناسبة، إن عبادتنا للدول العظمى، وهي إحدى أهواء زماننا هذا، لا يمكن أن تعمينا عن التبصر في الحقيقة الأساسية التي تنحصر في أن ثلاث دويلات ليس لها من المطامح والآمال الاستعمارية القليل أو الكثير — هولندا وسويسرا واسكوتلندا — هي التي أنقذت مبدأ الحكم الذاتي الذي آذن بالزوال عند مآظير المذهب البروتستانتي على مسرح العالم. وكانت جنيف الرائدة الأولى لهذه الدويلات الثلاث، إذ انجبت روسو وكالفن معاً.

عك العقل النافذ هو الحقيقة الرائعة

وقد حمل بيرك Burck حملة شعواء على روسو وعمله بقسوة لا تقل في وحشيتها عن تنديده بشارل الثاني في نفس الصحيفة من كتابه. وظهر ارتياحه أدلم يبل روسو في هذه البلاد ذاك الحب والتقدير اللذين كانا من نصيبه في كافة بلاد القارة الأوروبية، واستمر برك (كما رآه الشاعر وردسورث) يندد ويحذر ويسخر من كل الانظمة المؤسسة على الحق المعنوي المجرد، معلناً جلال الانظمة والقوانين التي قدسها كرايام ومر العشى. وعلى حد قوله، بدأ يهدم الآراء المستحدثة، مرسلاتها وإبلا من الاحتقار والسخرية. بيد أن مين Maine وهو أرفع عضو في الهيئة التي تناصر نظرية بيرك في انجلترا يرى أن روسو مع جهله وقلة فضائله وضعف خلقه، قد طبع شخصيته على

صحائف من التاريخ لا تبلى . وذلك بقوة خياله المتقدم الحى ، وصادق حبه للانسانية ، مما يحدونا على الدوام ان نغتفر له الكثير من زلاته .

وقد أحسن « بتام » اذ قال إنه اذا أردت أن تكسب البشر الى جانبك فلا بد من أن تحملهم على الاعتقاد أنك تحبهم ، وان خير طريق لحملهم على محبتك أن تحبهم حقيقة وان انشودة قس « سافوى » التى بهرت مشاعر أوروبا وضربت بنغمة جديدة على أوتار الخيال قد انبعثت من نفس العقل والقلب اللذين صاغا القنابل السياسية التى خدمت اغراض روسبيير وفريق من الرجال هم خير منه وأعظم شأنًا . وبذلك هبت عاصفة معركة عالمية جديدة لم تحمل فى جوهرها شررا جديدا ، اذ كانت تدور حول إعادة تعديل فى الانظمة الجديدة للتوافق بين المناسبات الجديدة من الافكار والآراء والانظمة القديمة العهد وأن أسماء هوبس وفلر وسدن وملتون وهارنجتون ، لكافية لان تعيد الى ذاكرياتنا المناقشات حول أصول القانون والحكومة ومبدأ (قانون الطبيعة هو قانون الانسان) وغير ذلك من الآراء السائدة فى أوروبا منذ قرن مضى . وإن مؤرخ الفلسفة السياسية ليرجع بنا الى قرون قبل ذلك . فالتاريخ بتقاليده وعاداته وأساليبه والانظمة المقررة فى جانب ، وقانون الطبيعة وحقوق الانسان فى جانب آخر ، وهذا الشقاق والنزاع لم يمتد الى السياسة لاغير ، بل تغلغل فى الفلسفة والفن والآداب والكنائس والتعليم . فى أوضاع وأشكال لاعداد لها ، لأنه لامرية فى أن الظواهر والمؤتمرات التى تنفذ الى بواطن السياسة ، يسرى نفاذها الى ماحولها

وهذه الظواهر تحمل طابع عصر من أجل عصور التاريخ ، التى هى بمثابة الدعائم التى يرتكز عليها أو النجوم التى بها نهتدى فى تعرفنا تاريخ العالم ودراسته بتعاقب الحقب والدهور

ولد الانسان حراً

تعرفون جملة روسوفى العقد الاجتماعى — تلك الجملة التى تسرى فى الجسم سريان الكهرباء — ولد الانسان حراً بيد أنه فى كل المواطن يرصف فى القيود والاعلال . وينا يفرض الانسان أنه سيد الغير إذ به لا يقل عنهم عبودية . ولا يجب أن نكلف أنفسنا مؤونة تحليل وصف الانسان بأنه ولد حراً فى زماننا هذا الذى قررت فيه الوراثة بين قوانين الوجود الحيوانى . إذ أن هذه الفكرة ترجع إلى زمن أقدم من عصر

روسو وأثرت في عقول وكتابات مفكرين سبقوهم أخرى منه بالاعتبار والتقدير .
والأقرب الى الصواب فيما يتعلق بالاوربي المتمددين في زماننا الحاضر على الأقل ، أن
نقول إن الانسان ولد وله من العمر ألفان من السنين وهذا هو معنى التاريخ عند
الانسان العادى ، إذا كان عنده من الوقت والصبر ما يحمله على التفكير أبعد من الساعة
التي هو فيها وهنا يجول في خاطرنا رأى جدير بالاعتبار ونحن في معرض الكلام عن الحرية ،
وهو ان روسو أكد أن واجب كل انسان هو ان يعاهد نفسه على الاعتقاد في وجود ذات
آلهية قادرة على كل شيء رحمة بالبشر ، وحياء أخرى حيث الابرار في نعيم والاشرار
في بؤس مقيم . عقيدة تخرج عن دائرة المعتقدات الدينية إلى نطاق عواطف الألفة بين
البشر . بحيث إذا انحرف عنها كان جزاؤه النفي أو الاعداء . وقد فصلت المقصلة رؤوس
أصحاب المبدأ العقلي فعلا سنة ١٧٩٤ طبق مبادئ روسو بالحرف الواحد دون مواربة
كما هلك سرفتوس وسط النيران التي أضرمها كالفين وطارت رأس سرتوماس مور بأمر
هنرى الثامن

ولا بد من التعقيب على قول روسو المأثور بقول لا يقل عنه جرأة في التعبير ،
بل يفوقه صدقا في القول ، وهو أن الانسان ولد غير متسامح وقد يبدو لنا أن التسامح
عند العقل العام هو آخر الآراء حقاً

حظ البادر والتربة التي يدر فيها

من السهل لدى الناقد البصير في زماننا هذا أن يصوب على كتاب كالعقد الاجتماعى
وابلا من المنطق والنظريات والمقارنات ودروس التاريخ ، كما كان من السهل عند
الدكتور جونسون أن ينتقص من قدر مرتبة جراى — بيد أن هذه القصيدة ظلت
متعة خالدة وسلوى لقلب المتعب . فقد تناول كتاب روسو بالنقد التحليلي القيم
المستفيض ، أكثر من عالم من جهاذة الفلسفة السياسية والقانونية في زماننا هذا (١)
يد أن الذى يعنينا أكثر من المنطق أو الجدل الكلامى إنما هو التاريخ - علاقات
الحاضر بالماضى والسوابق المهمة ، والقوى الخارجية ، والحوادث وتسلسل الحوادث
الى نتائجها النهائية ، وما أكثر ما ينبعث سوء التقدير عند السياسى ، كضيق الافق
والخطل في الرأى عند المؤرخ سواء بسواء ، من اهمال الحقيقة المفعمة باصالة الرأى

و نور البصيرة القائلة بان العواطف والظروف التي تسير الراى وتسبقه ابعد غورا واعمق اثرا من آراء البشر نفسها . وما يهمننا الوقوف عليه فيما يختص بعصرنا بل وكل عصر ، ليس هو آراء العصر الخاصة ، بل العناصر المركبة من ذاك الشعور الخلقى والخلق نفسه ، تلك العناصر التي تنمو فيهما الآراء كما في تربتها الملائمة (١) وهذه الكلمات مليئة بالقول الحق وسامى الادراك ، مما هو خليف بكل باحث في تاريخ البشر ان يتدبرها .

ان قوة اى كتاب سياسى راجعة الى انطباقه على الظروف والمناسبات كلما برزت هذه على مسرح الزمن . وفي احدى روايات دزرائيل السياسية يصيح احد اشخاصه قائلا ما أغرب الحوادث فاصغرها اكبر شأننا من اسمى الخيالات واوسعها نطاقا : ومهما بعد هذا القول عن الفلسفة الهادئة ، الا ان في جوفه حقائق ناضجة للنقاد . فالمحصول يتوقف على التربة بقدر ما هو راجع الى البذر . فليست الاهمية كل الاهمية في قوة الدليل المعنوى والاستنتاج ، بل في الحقيقة الراهنة (ونصفها وليد الصدفة) وهى ان هذا الدليل يمدنا باسلحة مقنعة هي مثال الاعجاب وقوة التأثير وهى تستخدم للهجوم او الدفاع المتواصل أو تعطينا طائفة من القواعد والسنن تتطلبها حاجة الساعة او الهدى الذى يملى هذه الحاجة . وقد شبهت الكتب والآراء والمعتقدات بالزهور فى الحديقة فليس خير الادلة وأقواها هو الذى يسود دائما ويتغلب . فان البستانى الذى يلهم الصواب فى اختيار فصل الزرع هو الذى يفوز بالجائزة . وما اكثر الوقت الذى يصرفه الكتاب (حتى خيارهم) فى سك عملة لن يكون نصيبها التداول . وفى سيرنا من القبة الفخمة التى تحوى الكتب المطبوعة فى دار المتحف البريطانى الى آثار الموتى فى قسم آخر ، تتابنا الفكرة احيانا : وهو ان ليس هناك كبير فرق بين الكتب التى هزت العالم وقتا ما ، وبين جثث ملوك مصر المحنطة .

العادة هى التى تغلب فى آخر الامر

فلم ينل اى كتاب حظ الانتشار والنفوذ السريع مثل كتاب شاتوبريان «روح المسيحية» (١٨٠٢) فحتى هؤلاء الذين يرحبون باثره يعدونه من سقط المتاع اذا قيس بمعيار قوة الجدل والمناقشة . وقد اسر صديق للؤلف ان وصفا مزوقا من

رحلاته الواسعة وعبارة خلابة وفكرة مصقولة ، تجذب اليه قراء اكثر عددا ،
نما لوحوى كتابه كل علوم البندكتيين . فاستمع لنصحه ، واذا بالمعلومات التاريخية في
كتابيه ليست اكثر قيمة من الطلاب الخارجى .

وأن الفرنسين الذين يفكرون جديا في روح المسيحية يجدون بغيتهم في بعض
مواضع «بوسوية» وبعض صفحات من بسكال وسان أوغسطين أكثر من كل ماخطه يراع
شاثوبريان وعبقريته . بيد انه حدث أن عقد بونابرت اتفاقيته (كونكوردا) مع البابا
يوس العاشر ولعب دوره بأبهة وفخامة في كنيسة نوتردام معلنا ارتباط الدين بالدولة
وعقد صلح ايمان مع انجلترا . وكانت كل هذه العوامل بشائر صفو في سماء السياسة
الملبدة بالعواصف والغيوم وبسم الزمان لمصائر الناس المعتمة . ولم يكن كتاب اسعد
امنه حظا أو أكثر توفيقا ساعة تأليفه . غير أنه لم يستطع أن يعمر أو يمتد نفوذه طويلا .
وكما هي الحال في الكتب ، كذلك شأن المبادئ فيقتطف الناس افرادا وجماعات من القواعد
والمبادئ وما يترتب عليها من النتائج البسيطة بقدر الحاجة وبقدر ما يلزم لاغراضهم .
وأن الحدود الممكنة للاستنتاج المنطقى لتتسع أو تضيق أو تنبذ ظهريا بقدر ماتمليه
الضرورة الماسة . وخير المقدمات والنتائج المنطقية لتكتسح أمام الابواق المعلنة للدعوى
الامن العام والنظام الاجتماعى وغيرها من الاسماء المستملحة لحكم الارهاب

الوثائق الثلاث الهامة في التاريخ

وقد ميز قاض أمريكى الوثائق الثلاث الهامة في تاريخ البشرية وهى الوصايا العشر
والموعظة على الجبل واعلان استقلال أمريكا .

وربما لم يكن قصد القائل تقرير حقيقة بقدر ايراد عبارة مأثورة . إلا أن جبل
طورسيناء وجبل الجليل وميدان دار الدولة فى فيلا دلفيا على كل حال مراكز بارزة
فى سير الانسانية . وبما يجب ادراكه الضياء الذى صحب انبثاق الكلمات المفعمة بالآمال
والآراء البراقة والمواظ الحارة وقوانين الاصلاح على طوائف انهكتها المظالم غارقة
فى لبح الهموم والنخاوف ألهمت عواطف الهوى الدينى والجنسى والحرية وآمال التملك .
وهذه هى الميادين الخالدة لصراع البشر . وليس هناك أسهل من تبيان المغالطات فى
إعلان حرية أمريكا . وقصارى القول كما قرر مؤرخ أمريكى بحق ، هو أن هذا الاعلان
كان منبعثا عن الروح الصادقة للبلاذ فى ذاك الوقت . إلا أن السليقة السياسية السليمة .

أوجت الى توماس بين Thomas Paine رسالة هي أبعد الرسائل السياسية أثراً واسماها، الحس العادى، وجهها الى مواطنيه الانجليز، من طراز مستعمري أمريكا فكانت قذيفة قوية سلطت على سيرا الأراء الثورية

وحى الساعة

إن الخلاف على خير أساليب الحكم وميزان الانظمة فى الدولة، حتى حول الحقوق الطبيعية، مسائل قديمة نسياً. ومن طبيعة الانسان ميله الى استيحاء هذه المبادئ المنقطة حسب ما تتطلبه الساعة والقضايا. الخلقية تشتعل ويضطرم أوارها كما لو كان ذلك الامر صدقة. فتلهب عواطف الجماعة، وقد انقضى سبع وثمانين سنة قبلما أمكن رئيس مشرب بمبادئ. أسمى من مبادئ « جفرسن » من حمل مواطنيه على اعتناق عقيدته: وهى إن لم تكن سياسة الاسترقاق خاطئة، فليس على وجه الارض شىء خاطئ. ولذا فليست الكتب النظرية هي التي تروج فى الازمنة العصبية على جانبي المحيط الاطلسي. ومن ذا الذى يهتم الآن بنقد كلمات خطاب جتسبرج الشهير عن امة ولدت فى مهد الحرية وكرست نفسها لفكرة ان كل البشر خلقوا متساوين. بيد ان أقدر الاقلام واضعح الالسن كما قال « بيرك » لم تتناول بيانها السياسة النظرية ولم توجه أقوى النفوس جهودها وعملت وجاهدت وعانت ما عانت، بل انها لم تجد جولانها الصادقة الا فى مسألة الضرائب دون غيرها. وقد بذلوا الجهد الجهد لوضع المبدأ الآتى كقاعدة اساسية. وهو انه فى كل الحكومات الملكية يجب ان يملك الشعب، بالوساطة أو مباشرة، حق التصرف فى أمواله، والا لم يبق للحرية من ظل أو أثر (١) وليس لذلك معنى ان الضرائب والرسوم هي كل شىء، وان يحصل الضرائب شر اعدائنا وان أقوى مثال لذلك هو بيرك نفسه. فبعد كتاباته الباهرة عن النزاع مع المستعمرات الامريكى (وهى اعظم ما كتب فى الحكمة السياسية فى آدابنا) عصفت العاصفة التى ساعد انتصار المستعمرات على هو بهاب عنف وشدة، على فرنسا الملكية. وقد تنبأ بذلك بيرك بحس صادق وحس لم يخطئ.، ووصف باسباب الدمار الذى سوف يحل بالبلاذ وأصبح موضع نجوى مهاجرى الاشراف من الفرنسيين الذى هبطوا على نهر الرين، ومهبط وحى كتاب الرسائل الجدلية السياسية « كيجنز » الذى خدم « مترنيخ » أو قاده فى مؤتمر فينا. وما ألهم كتابات بيرك فى افكاره — والصلح القائل للبلوك — لم تكن الضرائب

المحففة ، بل انقلاب التقاليد التاريخية العليا المألوفة . وقد وجدت كل قوى أوروبا الرجعية اللسان الذى يعبر عنها . فى حين انه فى البحث عن السبب والنتيجة ، يجب ان لا نخلط بين الصوت والقوة الناتجة عنه ، فوصف « لمارتين » للجيروندان ، قيل سنة ١٨٤٨ ، ووصف « تيارس » لحالة الامبراطورية الاولى قبيل انشاء الثانية ، وتصور مسز « ستو » للرفيق وحالة الارقاء ، عامة هذه كتب مزجت الاسلوب والطريقة العقلية بالعاطفة والهوى ، وقلبت العاطفة الملهبة الى صراخ وضجيج . فى حين ان كلا منها كان لها أثرها العملى .

بقاء الاصلح

ان من السهولة بمكان لدى أقل النقاد السياسيين تعمقا فى البحث ، ان يدرك من حالة العالم كما هى الآن كيف انه من السهل (لابل من المحتم) ان تتولد نتائج سياسية هائلة من كتب وابحاث يظهر أن لاعلاقة البتة بينها وبين السياسة . ومن ذا الذى يستطيع قياس أثر « داروين » وكل ما كتب عن مذهب بقاء الاصلح فى سياسة العصر . وليس ذلك فى السياسة العملية وحدها بل اثرها الحاسم فى توجيه آراء مدارس التاريخ النشيطة ذات النفوذ العظيم . وليست خاطرة عارضة هى التى تجمع بين « دارون » ونفوذ بسمارك كعاملين توأمين فى تغيير مزاج الجماعات من القرن التاسع عشر للقرن العشرين . ولا يجب أن يغيب عن بالنا ان هذا التحول العارض على مسرح الدول والحكومات من عصر فضى الى عصر برونزى ، قد اقترن بانتشار شعور انساني أعمق وأبعد أثرا نحو الاطفال والحيوان والمصابين بأمراض قاسية والمسجونين والعبيد الذين يرصفون فى اغلال الرق فى مجاهل أفريقية . وكل من هو بحاجة إلى الشفقة والتجدة والمساعدة يحفزها إلى العمل شعور قلب الانسانية المشترك . ولم يقتصر الامر على الدم والحديد . ولم تقف قسوة المنطق السياسى أو الاجتماعى وشدة وطأتها دون حد أو تحفظ . فما أعقد العروة الوثقى وأخفاها وأدقها ، تلك التى تربط أفكار البشر ومشاعرهم خفية وسرا

الحاكم صدقة سعيدة

و كما هو الحال فى الكتب كذلك شأن مشاهير الممثلين على المسرح التاريخى . ولما رجع فكتور هو جو من منفاه منذ أربعين سنة ونيف مضت ، لم يتالك بعض ذوى المقدرة والادراك الذين لم يعجبوا كثيرا بالرجل ولا بفنه ، من الشعور والاعتراف

بأن الرجل الذى تحوطه هالة من حماسة ثلاثة أجيال، لابد من أن تكون توافرت فيه صفات جذيرة بالتكريم والسمو، وإن ذلك الرجل الذى يعرف كيف يوقظ فى البشر اسمى المشاعر ويحرك فيها أنبل الدوافع، مهما كانت صفاته الأخرى، لجدير بنا أن نكرمه. فهو الموقد الذى فيه تضرع نار الحية فى روح الشعب وتظل حية متقدة، وإن امتزاج هذه المصالح السامية لجدير بعناية الناقد أكثر من محتويات كتابه. فقصار هو جو راجع إلى مافيه من السياسى بقدر مافيه من الشاعر. وهذا سر شهرته الواسعة التى لا تقارن إلا بفولتير. ففى كلتا الحالتين كان القلم سيفاً

ما يرمز إليه البطل

وقد قيل لأحد كبار الساسة الانجليزى وقتنا الحاضر لقد كانت حياتك وأعمالك متجهة إلى بقاء روح البلاد حية. وهذا يعدل كل شىء آخر فى السياسى. وإذا طرحنا الشخصية جانباً أو أقللنا من أهميتها أصبح تاريخ التقدم الاجتماعى شيئاً أجوفاً لا معنى له. ولقد نتجت عبقرية أوجست كونت قائمة من أسماء أبطال العالم والمحسنين إلى الإنسانية أملت بها الروح العقلية والتى قال فيها أشهر معارضى نظام كونت البنائى أن ليس هناك مفكر أو سمع إدراكاً وأشمل عطفاً وتقدير أو تبجيلاً لكل ضرب من ضروب الخدمات التى اسديت للبشرية (١) وإن سجلاً للعظماء لا يحوى أسماء لوثر ولا كالفن ولا نابليون، لمدعاة للتساؤل وطلب الإيضاح. يد أن تقديره الخاص كان مبنيًا على الخدمات الحقيقية الإيجابية التى أسداها أبطاله لصالح المجتمع الإنسانى.

وهناك صلة منشؤها العمل والمكان تربط أبطالاً بعضهم ببعض. وهذا يخالف كل المخالفة عبادة الأبطال ذوى الأعمال الرنانة. ويختلف من جهة أخرى عن التعلق باسم معلم من معلمى الإنسانية أو الموحين إليها الذى هو من أجل الصفات جمعاء فى خلق البشر. فاختر أبطالك كما تشاء فى أى ميدان من ميادين الفكر. أو العمل سواء أكان من بين خمسمائة أو خمسة فقط. فأول سؤال، أو بمعنى آخر آخر سؤال، يحدد هذا الاختيار، هو ما يرمز إليه بطلك.

وفى الواقع ليس هناك ما يعود بالضرر القاتل كتمحويل التاريخ إلى عبادة تشبه عبادة الأصنام. فعبادة الأبطال التى روجتها عبقرية كارليل الشاردة الشاذة بين جيلنا الحاضر بسهولة تخطت حدود المعقول فى التاريخ والسياسة، لتفسد على المرء

١ وهذه القائمة منسقة تسبقاً بديعاً فى كتاب فردريك هاريسون - السجل الجديد لعظماء الرجال - تاريخ حياة ٥٥٨ عظماء فى كل عصر وأمة وفق مبادئ المذهب الإيجابى

دائرة تصور . بيد أنه لا مراة في أن وحدة الآراء والمصالح عند الرجل العظيم
ذى الرأى السامى ، القادر على عظام الأعمال ، لما يؤثر في تصورنا تأثيراً يقرب من
اقتنائنا بتناسق وجمال أعظم مبتكرات الفن الخلافة — من القطع التمثيلية الخالدة إلى
الملاحم الفخمة وقطع الموسيقى الجامعة لمختلف الأصوات والأنغام (السيمفونى)
وبدائع النقش ، على أن معايير الفن أدلاء غير صالحين في اختيار أبطال السياسة .
وقد قال أحد العارفين عن نابوليون أنه كان كله خيال في خيال . فقد خلق إسبانيا
خيالية وانجلترا خيالية وكثلكة خيالية ونظام مالى خيالى وفرنسا خيالية . وعقبه
كارليل الذى خلق نابوليون خيالى كى نعبده عبادة الأبطال .

التحول بالصدقة في التاريخ

يجدر بنا أن نذكر أن قانون التحول بالصدقة ، الذى يجد التفكير فيه تفسيراً
لتولد أنواع جديدة ، قد يصدق خارج دائرة علم الحياة . فالرجل المبرز في اليوم
العصيب يظهر كأنه آخر حلقة في سلسلة المصادفات ، بكل ما فيه من مهارة ومواهب
وعبقرية وإرادة وبصيرة قادرة على خلق الطوارئ والسيطرة عليها أو إحداث
الانقلابات في نظم الحياة ووسائلها . وقد قال اسكندر الأول امبراطور روسيا لمدام
دى ستايل ، في آخر الأمر ، ما أنا إلا صدقة سعيدة ، والتاريخ الحربى حافل بمئات
الحالات الدالة على التحول العجيب في الحظ والفرص والرياح والأجواء بما لم
يتوقع حدوثه أو كان من المحال توقعه . وقد كان أكبر القواد أول المؤمنين بالخط
الاعمى الذى يسيطر على لعبتهم الهائلة ، والأخطار التى تنتاب الرجال حين يلعبون
بقطع النرد الحديدية في لعبة الحرب القاتلة . ف سواء أ كان عظماء الرجال أول الحلقات
في سلسلة المصادفات أم آخرها — ساسة كانوا أو قادة حروب أو مفكرين أو
مخترعين — فالمحرك المسير يظهر كأنه وليد الصدقة البحتة ، كالنجم المذنب أو
الشهاب . لا كالنجم الثابت — وهذه الصدقة ناشئة عن اقتران شخصية خاصة
بالفرصة الملائمة .

وإذا كان لأى انسان أن ينفر من فكرة ان مجرى التاريخ مما يمكن تحويله بصدقة
من مصادفات الزمن ، فيجدر بنا أن نذكر أن رجال الكنيسة المتمسكين بمبادئهم
ومفكرى الساسة ، ما فتوا يسهبون في بيان الخفاء الذى لا يمكن ان نشق حجابيه ، والذى يحيط

بأصل الجماعات البشرية وسيرها وعملها والانظمة الحاكمة عند الانسان . وحينما قال
 قيصر روسيا عن نفسه أنه صدقة بحتة ، لم يكن بذلك أكثر من أنه شيء خفي وقوة لا
 سبيل الى تفهم منبعها . وكيف لنا أن نهت ويستولى العجب على مشاعرنا عند التفكير
 في الصدقة وأثرها في شئون الحكم أكثر من الدهشة من ظهور جبابرة العبقريّة في عالم
 الموسيقى كباخ وبيتهوفن ، أو تألق العقول النيرة في ميدان الفن أو العلم أو الابتكار
 كنيوتن وواط وغيرهم

المنهج التاريخي

وقد قيل بحق عن المنهج التاريخي في البحث أن من بين آثاره الواسعة الرجوع
 بعنصر المصادقة الفردية الى حجمه الصحيح وأهميته الحقّة ، فهو يعتبر الخلق القومي
 والظروف القومية كالقوى الخالقة بما يجب اعتبارها كذلك حقاً وعدلاً . ويقول أحد رجال
 القانون متهمًا إنه خيرا للانسان أن تثبت عليه تهمة سرقة شيء تافه ، من أن
 تنقصه طريقة التفكير على المنهج التاريخي

إن المنهج التاريخي سائد في ميدان البحث والحكم على المسائل الاجتماعية . وهو يحذرنا
 اتنا لا يمكننا أن نفسر العوامل والظروف التي تتناولها جميعاً بالبحث دون الرجوع
 الى منشأها واعتبار الوجهة البيولوجية فيها ويستعيز عن الآراء الجامدة المشتقة من
 المعنويات البحتة بالبحث عن شيئين : أولهما إيجاد العلاقة بين الحقائق الهامة والآراء الاجتماعية
 التي تسود في طائفة أو جماعة معينة في وقت معين : وثانيهما تطور نظام عن نظام آخر
 في المعتقدات العامة والاذواق والعادات وانتشار الثروة وسريان القوانين بين الجماعات
 وكل فنون الحياة . وما هذا القول الا توسطاً في الحقيقة المعروفة وهي أن القوانين
 والانظمة ليست وليدة الصنع ، بل نتيجة النمو ، وما يسرى عليها بحق ينطبق كذلك على
 الآراء واللغة والعادات التي هي منبعها ومحكمها . ومن السهل أن نسوق القول بان
 سيادة المنهج التاريخي لها مضارها فدراسة المعتقدات والانظمة والقوانين
 وأساليب الفن والمراحل المتعاقبة التي تمر فيها ، تنمو وسرعات ما تصبح
 بديلاً عن النقد المباشر الموجه لها حسب طبيعتها وميزاتها والبحث عن حقيقة حادثة
 من الحوادث التاريخية وأهميتها وتفسيرها ، ولوانه يجب أن يعتبر أمر أحيوي لا غنى عنه
 يصبح شيئاً ثانوياً بالنسبة للبحث عن كيفية وقوعها . ولذلك فهناك أكثر من مدرسة واحدة

تعتبر المنهج التاريخي مغالى فيه . يقولون بحق ان في هذه الطريقة في جوهرها تؤول الى رفض كل ما هو مجرد واحلال كل ما هو نسبي بتواصل واستمرار . وهذه الطريقة لا تنطبق على قواعد الخلق ، شأن كل أداة علمية وشأن الطبيعة نفسها على حد معنى من المعاني فهي دامية السن والمخلب ، لا تعنى الا ببقاء الأقوى وليس التاريخ المقارن بأسمى ضمير آمن التشريح المقارن . فنحن نرتب المثل العليا في جداول حسب نوعها وطبيعتها يبدأها في هذه العملية تفقد النور الحيوى الذى تنبعث منه والهالة المقدسة التى تحيط بها . وحتى كبار الرجال تسفر التجربة عن انهم خيالون في ميدان السياسة . كهؤلاء الذين يسرون في نومهم ، وان الأقوال التى تساق جزافا كحقائق السياسة الحالية ، وأولى الحكم وما إليها ، لا أقوال جوفاء لا معنى لها . وقصارى القول أن التاريخ تحول دائم وصيرورة متواصلة وتعاقب لانهاية له في الفعل ورد الفعل والاحياء والتدمير والتجديد أو كما قال شكسبير « قصة صخب وغضب لا طائل تحتها » ، وكما قال هيرقليطس في قديم الزمان - كل شيء في تحول ولا يسبح انسان مرتين في مجرى واحد . فالمياه في تجدد وجريان دائم ، على أن القول بأن التجارب والاختبارات النسبية مفاتيح معرفة التاريخ معرفة حقيقة وتقدير الممثلين على مسرحه تقدير أصائب ، لأحدى المعتقدات التى ليس من المحتمل أن تفقد قوتها ومبلغ تأثيرها .

السياسة كعلم

وليست هذه فرصة البحث . بل تتساءل هل هناك علم للسياسة ؟ فقد كفانى السير بولوك في كتابه البديع « تاريخ علم السياسة » مؤونة البحث في ذلك وهل هناك اتصال حقيقى بين الجسم السياسى وبين الجسم الطبيعى ؟ وهل سيحدث تقريبا ما بين الطرق والعمليات السياسية وبين الطرق والنهج في علم الحياة ؟ فقد يستخدم السياسى عبارات البيولوجى ويتكلم في الأجنة والحرائيم والأجسام الحية ، في حين أن الحق كل الحق في جانب هؤلاء الذين يؤكدون أننا لم نصل إلى ما يقرب من التكوين الصحيح لعلم للسياسة مبنى على القواعد الاستقرائية . وليس ذلك بسبب يمنع السياسى من الاستنتاج الصحيح وفق الاسلوب العقلى أو يمنع المؤرخ من البحث وارتداد مناطق العلم المجهول بالهمة المنظمة وسلامة الضمير والصراحة والحرص على الحقيقة ، تلك الصفات التى كانت رائد داروين وابطال العلوم الطبيعية وأن العلوم السياسية لينتاهما نفس الضعف الذى إذا أصيب به علم الاقتصاد السياسى في مستهل القرن التاسع عشر . إذ كان الجو الخاص بها قد استشف استشفافا غريبا . والرجل السياسى النظرى تلبسه نفس الصفة المصطنعة كالتى تحيط بالانسان النظرى كما يتصوره الاقتصادى . وقد تصور المفكرون الفرنسيون في أيام فولتير وجود هذا الانسان

في الصين أو الفرس أو أية بلد من البلاد المختارة التي لم يدروا عنها شيئاً في الواقع أكثر من
 درايتهم بكندا حين وصفوا الحرب بين إنجلترا وفرنسا بالسخف والسخرية كنزاع على آلاف
 من الاميال المربعة من الثلوج الدائمة. وقد زادت معارفنا الآن. غير أن معايير الدافع الانساني
 ما زالت تطبق بطريق التعسف على كل ما هو مستبعد في الزمان والمكان فالقيمة الاخلاقية
 ليس لها من الاعتبار أكثر من ضروب الزينة وما زالت شئون الانسان محصورة
 في وصف الآلة السياسية وسيرها دون اعتبار كافة أنواع الوقود الاجتماعية الذي تتوقف
 عليه قوة السير والدفع والتغير في نمو الافكار الجديدة ونفاذ النظم السياسية وقوتها
 في التعبير عن الآراء الحديثة. كل ذلك يعتبر أمراً ثانوياً أو يهمل شأنه كلية. فطرق
 البحث التي اختطها الاستاذ ديسي في كتابه عن العلاقة بين القانون والرأي في القرن
 الثامن عشر، تستحق أن نحدو حذوها. اذ أن ذلك من المحتوم. ومتى تصورنا العلم
 بهذا الشكل تحقق لنا أن قيمة الاوضاع السياسية يجب أن تقاس
 بما تأتي به لنا، اذ يجب أن نعبر عن أغراض دولة، ايا كانت وتلائم فكرتها الحية
 وذلك بأوسع المعاني، وآمل أن ليس في ذلك ما يبعد جحوداً لفضل طائفة من الكتاب في
 هذا البلد ممن تملأ مؤلفاتهم خيراً قيمياً في أية مكتبة في هذا الميدان الهام. ومن بينهم
 جرين وبولوك ودابسي وهو بهاوس وبوز انكويت وولس. ولا يحسن أحد أن التغير
 والبحث في الدولة ومشعب علاقتها بالفرد ليسا بالشئ المادي أو بما لا طائل تحته
 فمن المعتبر أن محاولات فريق من قادة الرأي الفرنسيين في تصوير وتقديم نظريات الالمان
 الخاصة بالدولة في لباس فرنسي، هي السبب المباشر في نشأة السنديكالزم، (١) وانتشارها في فرنسا

السياسة والقانون

والسياسة بالمعنى الذي صورتها فيه تختلف عن القانون في أن الأخير يميل الى
 وضع الافكار في قالب خاص وروضها على التقيد بأوضاع محدودة. بينما علم السياسة متى
 تناولناه وفق المنهج الصحيح دأب على تغيير شكل هذه الاوضاع وتوسيع مداها وفحص
 السبل التي بها تلائم هذه الاوضاع الحقائق الجارية بيننا. ولذا فهو أوسع من القانون
 مدى، اذ يمكننا القول بأن عمله يبدأ حيث ينتهي القانون وهو بدوره أضيق في اتساعه
 عن علم الاجتماع اذ يبدأ بافتراض وجود الدولة بكل ما يتبعها من حقوق وسلطات
 وواجبات.

يتبع